-

حســن عرّود

عزيز الغزالي :إطار بوزارة المالية ، مدير صفحة قبيلة البرانس تقاليد وعادات ، عضو بلجنة التنسيق بموقع WWW.BRANESTAZA.MA يبدع ثلاث قصص قصيرة / خواطر من وحي الطفولة بالبرانس مسقط رأسه : حسن عرود ،ليلة القطرة وصباح الجبيرة ، أرقية ثم انتظار وانكسار

كانت أيام طفولة جميلة قضيناها معا، أنا وأبناء الجيران من سني، كنا رفاقا لا نفترق إلا عند مغيب الشمس بعد يوم حافل بالأحداث، نستيقظ باكرا، نتناول كسرة خبز مغمسة بالزيت، وكوب قهوة، نبحث في ظلمة الفلق عن محفظتنا، التي لم تعد تحمل سوى الاسم، بعدما أكل عليها الدهر وشرب، بسبب تواتر استعمالها بين الإخوة.

من حسن حظنا أنها محفظة عسكرية، لا أدري كيف حصل عليها أهل الدار، نخرج باكرا، وينتظر بعضنا البعض، نتصافح بسرعة ثم نلملم أيادينا وندسها في جيوبنا، التي لا شك أنها كانت أيضا ممزقة. نقصد المدرسة، وكلنا أمل أن يغيب المعلم عن الحصة.

لكن هيهات، لقد حضر في الموعد، وهاهو يتأبط عصاه، وعيناه محمرتان من قلة النوم... تقشعر جلودنا ونتحمل في صمت عنفه، وتصبر أجسادنا لقسوة هذا الجلاد الذي لا يرحم. تأتي ساعة الفرج، فنخرج ونطلق سيقاننا للريح، نتسابق في اتجاه الدار. في الطريق، نمارس لعبنا المفضلة من قبيل الركال،وعكَيلة، وحابا...

عندما يكون الجو ربيعا والحقول جادت بغلالها، لن تفوتنا فرصة انتقاء أجود خروب الفول وقمّيرة، والارتواء من مياه سواقي المروج. ننحني كي نشرب مياها عذبة من "زطمة البغل"...

لكن منذ أيام لم يحضر معنا صديقنا حسن بسبب المرض، لقد لازم الفراش منذ مدة وافتقدناه، لم نستطع إدراك ماهية الأمر، غير أننا نسمع أمهاتنا يدعون له بالشفاء، ويتحسرن على حال أمه المسكينة التي لا تكف عن البكاء.

بمجرد وصولي إلى الدار، طلبت مني الوالدة مرافقتها إلى بيت حسن، قالت إنه يسأل عني كثيرا ويريد رؤيتي. استجبت توا للأمر، حملت أمي بضع بيضات لملمتها في منديل، كهدية للمريض حسن. بمجرد دخولنا بيتهم، سمعت صوتا أمه وهي تبكي بصوت مرتفع، أحسست بخوف شديد ورغبة عارمة في البكاء، دون أن أفهم ماذا يجري بالضبط. قصدنا الحجرة التي يرقد فيها، كانت شبه مظلمة، لأنها توجد في عقر الدار، نزعت حذائي البلاستيكي مثلما فعلت أمي وتراءى لي حسن تحت الفراش جثة هامدة، وأمه تجلس قربه وتبكي، تبكي بصوت عال،وتردد كلاما بقي عالقا في ذاكرتي إلى اليوم، (وووووووووواوليييييييدي

مادموتش ودخليني). كانت ترددها بأعلى صوتها وتذرف معها دمعا غزيرا. تبكي معها باقي النسوة ممن حضروا لمواساتها. بمجرد ما رأتني طلبت مني الاقتراب لأنه هو من أصر على حضوري، همست له أمي في أذنه طالبة منه فتح عينيه لرؤيتي فاستجاب للأمر. نظر إلي بعينين شاحبتين، وبدا على محياه أثر هذا المرض الخبيث، بصعوبة أخرج يده من تحت الفراش وأشار بأصبعه إلى كيس مملوء بالنبق، فهمت أمه الرسالة، وأخبرتني بصوت باك، قائلة "خذ يا عزيز، لقد خبأ لك نصيبك من النبق، الذي جلبته إليه أخته من مكناسة".

أخذت الكيس بيد وصافحته باليد الأخرى. أحسست بحمى جسده، وكلما حاولت سحب يدي إلا وضغط مطالبا ببقائي جانبه. منظر رهيب. امتلأ البيت بالنواح، وبقي إبريق الشاي الذي أعدته أخته للزوار على حاله، وكلما طلبت من الحضور التقدم نحو المائدة إلا وأجابوها "ما عنداشي مناي دهود، غير الله يخلف".

بعدما نام حسن، غادرنا بيتهم، وإنتابني شعور غريب تلك الليلة. تبادرت لذهني الصغير عدة أسئلة لم أجد جوابا لها، من يكون هذا المرض الخبيث، الذي أطاح بأعز أصدقائي أرضا؟! وإلى متى سيستمر الأمر على هذا الحال؟

نحن بحاجة لحسن كي يكتمل الفريق، كي نصنع لعبا وشاحنات من تراب دقوان المبلل...

في الصباح الباكر، سمعت أحدا يطرق الباب، وعندما فتح الوالد على عجل، سمعت صوتا يقول "حسن مات الله يرحمو، يلاه نحفرو القبر". نهضت مسرعا، ورأيت أمي ترتدي الحلّاس،وتمشي مسرعة. تبعتها على عجل، وما إن اقتربنا حتى سمعت بكاء شديدا ونواحا، وتعالى صوت أم حسن "وووووووووووووووواوليدي، مشيت وخليتني، واااااااااوليدي !..."

رأيتها تتمرغ في قاع الدار، وتضرب خذيها وصدرها، حاولت بعض النسوة ردعها، لكن دون جدوى، رأيت نساء يتساقطن الواحدة تلو الأخرى مغما عليهن، وأسمع الباقي يقول (فيهم لرياح، غير خليوهم...).

تساقطت دموعي حسرة على فقدان حسن،لأني عرفت إبانها أنني لن أره إلى الأبد.تساقطت أكثر، حين تبعت موكب الجنازة وهم يرددون "مولانا نسعاو رضاك، وعلى بابك واقفين...).

تساقطت دموعي قبل أنهي كتابة هاته السطور، ولم أقدر على المواصلة...

(إلى روح صديقي ورفيق طفولتي، حسن عرّود. كان ذاك ثاني حسن تفقده تلك الأسرة، إذ أعطته، من باب التعويض عن الفقد، اسم شقيق له توفي في مثل سنه قبله بسنوات كثيرة. وقد يكون ذلك بسبب مرض وراثي نادر، تحمل مسببه الإناث، ويرثه أبناؤهن الذكور فقط).

ليلة القطرة وصباح الجبيرة

رياح قوية وظلام حالك يخيم على القرية، سماء ملبدة بالغيوم، وأمطار تتهاطل بدون توقف. أيقظ علال أولاده الصغار، وطلب من زوجته مساعدته في إشعال عود الثقاب البارد، والبحث عن نصف الشمعة المتبقي.

في انتظار أن يشع نور الشمعة، تسمع قطرات الماء هنا وهناك، تتساقط من تحت أعمدة السقف لتهوى فوق تراب الحالة. أصيب الأطفال بالذعر والهلع بعدما تأكدوا أن والدهم أيضا لا يملك حيلة، بعدما كانوا بالأمس يحسبونه قادرا على دفع كل الصعاب والمخاطر التي قد تحدق بهم. تسارع الزوجة في الإتيان بكل الأواني الترابية والبلاستيكية لتضعها تحت القطرة، وتحاول أن تبعد الأغطية المتهالكة إلى الركن الأقصى من البيت. يصر علال على الخروج للصعود إلى السطح لترميم مصدر هذه القطرة، خشية أن يهوى سقف البيت فوق رؤوسهم، وتحاول الزوجة إقناعه بالعدول عن الفكرة، لأن الأمر محفوف بالمخاطر...

دون أن يبالي،لبس علال جلبابه وحمل البالة على كتفه، وخرج مسرعا، فعادت الطمأنينة لنفوس أولاده، بعدما أيقنوا أن أباهم فعلا لا يهزم كما عهدوه. التفت يمينا ويسارا، فلم ير شيئا سوى ظلمات ورياحا وأمطارا، وأصوات السيول في الجداول. لا نباح ولا عويل. هرول علال خلف البيت يقاوم قوة البرد الآتي من جهة الغرب، تحسس مكان الصعود وقفز نحو السطح عبر الرديف، أخذ يمرر البالة فوق ما تبقى من مزواغ السطح، ويحاول سد الثغرات، التي يتسلل منها الماء إلى الداخل، وفي لحظة هبت ريح عاتية، قاومها علال بكل ما أوتي من قوة، لكنه استسلم لضغطها، ليجد نفسه مرميا في قاع الدار. خرجت الزوجة مسرعة وتبعها الأطفال وهم يرجفون، فتراءى لهم الأب جثة ملقاة على الأرض. لم تتردد الزوجة في مساعدته وحمله إلى الفراش الذي تبلل نصفه بفعل القطرة، أعدت له كوب شاي بدون سكر على ما تبقى من جمر المجمر، مصدر الدفء الوحيد.

شرب بعض الجرعات، وبعد حين استفاق. فرح الجميع، بعدما لمحوا البسمة تعلو شفاه الأب، لكن الزوجة تحسست يده اليمنى لتجدها مكسورة، فكانت الصدمة قوية، إلا أنها كتمت الأمر حتى الصباح الباكر، فخرجت مسرعة في اتجاه دار عمي أحميدة، مول الجبيرة....

ارقـــيـــــة

كان قطيعها بسيطا، يتألف من نعجتين وخروف ومعزة، تسعد رقية كثيرا باللعب إلى جانب قطيعها الصغير رفقة ثلة من بنات سنها، في أحد الأيام، رجعت إلى البيت منهكة تبحث عن كسرة خبز مطلية ببعض الزبدة أو بيض مسلوق في أحسن الأحوال، كي تأكل وتخلد للنوم لاستقبال يوم جديد.

لكن هذا المساء ليس كغيره، فقد لاحظت وجود وجوه جديدة بالبيت، نسوة ورجال، والجيران أيضا حضروا. حاولت أن تفسر سر وجودهم بتفكيرها البسيط، لكنها لم تفلح، بدأت تسمع كلاما غريبا، ورأت في عيني أمها دمعا يكاد يسيل، وتحاول إخفاءه بابتسامة مزيفة. حاولت رقية أن تشارك الحاضرين في أشغال البيت، لكنهم منعوها بلطف، وطلبوا منها أن تجلس مع الضيوف من النساء، بعدما ألبسوها ثوبا جديدا، وسمعت الجارة تقول إن "رقية تحب الحناء كثيرا، وهذه الليلة سأتولى طلاءها لرجليها ويديها حتى يصبح لونها أحمرا قانيا غدا".

تعجبت الفتاة كثيرا من هذا السخاء الزائد عن اللزوم، وعند العشاء، منحوها فخذ ديك بلدي،ولوزا وعلكا وحلويات... مازالت رقية تتساءل في حيرة من أمرها عن السبب، وتوجست خيفة، حتى أنها لم تتمكن من أكل سوى اليسير مما أعطي لها. الجارة تبدو جد مسرورة، وتلحق برقية إلى الحجرة المجاورة، وتخبرها عن السر: سيأخذك رجل من الدوار الذي يوجد خلف الجبل، سنزوجك يا رقية، وسنقيم لك حفلا بهيجا.

عندها فقط، حاولت رقية أن تفهم ما يجري، وتذكرت لعبة العريس والعروسة، التي كانت تلهو بها رفقة صديقاتها وراء القطيع، لكن الأمر أصبح حقيقة، وببراءة الصغار، سألت رقية جارتها "هل ستحضر معي أمي إلى هناك؟". ردت الجارة "نعم بالتأكيد، سنلحق بك في اليوم الموالي، وسنحمل إليك إسفنجا ودجاجا شهيا، وسلة بيض كي تأكليها رفقة زوجك". اختلطت الأوراق في ذهن الطفلة رقية ذات الخمسة عشر ربيعا، وتسلل الخوف إلى كيانها واحتارت بين البكاء أو الفرح أو ماذا...

بعد أيام، جاء موكب العريس وسمعت رقية صوت الغيطة والطبل يقترب من الدار، بسرعة البرق، حملوها فوق بغل مفروش الصهوة، وركب شقيقها الأكبر وراءها، والمسكينة تنظر من تحت فستان الفرح إلى من حولها. طالت مسافة الطريق،وفي كل خطوة نحو الأمام يزداد الخوف من المصير المجهول...

وصلوا بالعروس إلى بيت الزوجية. تحدق رقية في محيط غير ذاك الذي ألفته. حملوها إلى غرفة في عمق الدار، شموع وعطر وعود وطبل وصلاة على النبي من أفواه الحاضرات، وقلب المسكينة يزداد خفقانا...

دخل خلفها العريس وأغلق الأبواب. واجهت رقية مصيرا عسيرا... مرت الأيام وتوالت الشهور، وصارت الطفلة أما رغما أنفها، وظلت تقاسي مصيرها بين أهل غير أهلها.

(تحية إجلال لكل أم برنوسية ضحت بطفولتها لتصير أما قبل الأوان،ونصير نحن الأبناء. قبلاتي أمي الغالية. قصة مرتجلة في ليلة غاب فيها النوم وحضرت الذكريات)

إنتظار وانكسار

جلست بعيدة عن جانب الطريق، تترقب موعد الوصول، تلاحق بعينيها كل عربة تمر من حين لآخر، تراقب اقترابها من مسافة بعيدة، وكلها أمل أن يكون على متنها من تنتظره بشغف جنوني، تكتمه داخلها.

تتبادر إلى ذهنها الأسئلة تلو الأخرى، ترى كيف يقضي يومه في تلك الأرض المسماة صحراء؟ من يطبخ له؟ من يؤنس ليله الطويل؟ ...أسئلة كثيرة تحاول فك ألغازها من خلال تذكر ما كان يحكيه لها، لكن خيالها لا يسعفها في رسم صورة طبق الواقع لحياة الجندي المغتوب في مجاهل الصحراء. كيف يمكنها ذلك،وهي لم تبرح قط بلدتها الصغيرة إلا مرة واحدة، صادفت يوم رافقها أبوها وأمها إلى تازة العليا كي تشتري "زهاجها" قبيل عقد القران.

مر اليوم بسرعة بسبب كثرة المشاغل، حتى أنها لم تسنح لها فرصة فك طلاسم هذا الوحش الذي يسمى مدينة، وكادت تصاب يومها بغيبوبة وتظل مشدوهة في كل ما حولها إلى أن تستفيق على كلمات أبيها القاسية "زيد ألوعد، مالك غي فاتحة فاك؟!"...

تذكرت تلك الليلة العصيبة، التي كان الجميع في احتفال وفرح إلا قلبها الصغير، تذكرت كيف استطاعت أمها أن تتخلى عنها، ولم تجد بعدها من يمرر يديه في شعرها ويسرحه بمشط القرن، وقليل من الزيت، لتعد لها ضفيرة متقنة من شعرها الطويل. تذكرت أول يوم خاطبتها فيه "عكَوزتها" عبر النافذة قبيل طلوع الشمس طالبة منها النهوض من النوم، لأن مهرها كان غاليا، ولا مجال للراحة بعد الآن. تذكرت تلك الكلمات الجارحة، التي كانت تسمعها من "شيخها"، وهو يتهكم على ما أعدته من رغيف "خرينكَو"، الذي لم تظهر ثقوبه وبقي "محنكا". يخاطبها الشيخ "هاد خرينكَو عطيواه للكلاب، راك أضيعني فرزقي أطفلة، الله يهديك". تذكرت كم مرة أحرقت يدها بنار الكانون، وكم مرة تناولت عشاءها في النوالة وحيدة، لأنه "عيب" أن تجالس الضيوف الذين يحضر معهم رجال، وطبعا هي ليست من محارمهم. تذكرت ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى البئر وسقط دلوها، فظلت تبكي، لأنها تعرف أنها ستسمع سبا نابيا من لسان "شيخ" الدار.

يحضر التذكار ويطو ل الانتظار، ليس شوقا للقاء من عشقه قلبها، لكن لمن فرضته عليها الظروف ووجدت نفسها مرمية بين أحضانه رغما عن أنفها.

وقفت سيارة الأجرة،نزل منها بعض النسوة، يتقدمهن رجل مسن. لم يأت إذن،وقد مرت أربعة شهور أو أكثر على غيابه. فقدت الأمل،وعادت لتضع يدها على خذها والدمع يملأ عينيها، وشفتاها تدندنان لحنا حزينا حفظته عن أمها، تردد فيه بحسرة :

طالع الكـار وبـيبانو د اللوح **** والوليد ألوليد، أنا قلبي مجروح